الأدب الميت

قد يكون من الحق أن نصف الأدب بالحياة والموت ، مراعين فى هذا الوصف ما يبعثه الأدب فى نفوسنا من حب الحياة والتفانى فى ذلك الحب ، وهو ما نسميه الأدب الحى النامى ، وعلى العكس منه هذا الأدب الذى يبغضنا فى الحياة ويجعلنا نعرض عنها بوجه مغيظ وفؤاد محنق ، وبعبارة أخرى نقول : إن الأدب الميت هو هذا اللون الذى لا تتفق غاياته مع غايات الحياة ولا مثله العليا مع مثلها ، ونريد فى كلتنا هذه أن نبين أثر هذا الأدب فى أخلاق الشعب ، وما يغرسه فيه من عاد وأخلاق ، وقد لا نكون مغالين إذا ادعينا أن تأخر الشرق ووقوفه فى منتصف الطريق ، بينما الغرب يجد ويعمل من غير كلال ولا ملل ، للوصول إلى القمة والذروة ، يرجع إلى الأدب الميت الذى ساد ربوعنا وتغلغلت روحه فى نفوسنا وقلوبنا ، فأن الأمم لا ترقى إلا بأمرين : أدب ناهض كامل ملىء بكل عناصر القوة ، وتربية صحيحة قويمة للجسم والعقل والخلق ، فاذا انهار أحد هذين الركنين استحال على الأمة أن تنهض وترقى وتسير بخطى وسيعة إلى أمانيها وآمالها ، ولذلك فأنت ترى المصلحين فى كل أمة لا يبغون الاصلاح إلا بهاتين الوسيلتين الناجحتين ، ولقد ظل الشرق حينا من الزمن خاضعاً لما ورثه عن أجداده السالفين من آداب لا تتفق ومبادىء الحياة وغاياتها ، قل الحياة وسئمها ، ورأى أنه لا فضل فيها ولا فضل فى الجهاد والكد من أجلها ، مؤملا الحظ والسعادة فى حياة ثانية غير هذه الحياة ، فتوانى وتواكل ، حتى أسلمه هذا التواكل إلى ما نراه الآن من تأخر واضمحلال ، واليوم قد آن لنا أن ننفض عن أنفسنا غبار الأدب الميت الذى عشنا فى ظلاله حينا من الدهر ، محمولين بظلامه ، مغمورين بآثامه .

قلنا : إن الأدب الميت هو الذى لا يتفق مثله الأعلى مع مثل الحياة ، فما هو إذن مثل الحياة الأعلى ، الذى نعيش له ونحيا من أجله ؟ نستطيع فى الاجابة عن هذا السؤال أن نقول : إن مثل الحياة الأعلى هو السعى بالانسانية إلى أكمل غاية مستطاعة فى كل ناحية من نواحى العيش ، مادية كانت أو معنوية ، من غير تقصير فى أحدها أو إهمال ، ولهذا فالأدب الحى هو الذى يدعو إلى المثل العليا ، ويملأ النفس تحفزاً وأملا فى نيلها ، وهمة تستهين بالصعاب والعقبات تذللها وتقتحمها ، وعلى العكس من ذلك تماماً يكون الأدب الميت الذى ندعو اليوم إلى نبذه واطراحه ، فبينما يدعونا الأول إلى الجد والكفاح والعمل ، ويغرس فى قلوبنا الايمان بأن لا شىء فى هذه الدنيا إلا العمل والعمل وحده ، إذا بالثانى يركن إلى الحظ ويؤمن بأن كل ما فى الوجود خاضع

لقانون القضاء والقدر ، فاله يجد ويعمل وهو لن ينال إلا ما كتب له فى عالم الأزل ؟ لاشك أن أدبا تلك غايته ومقصده، لايترك فى النفس إلا ابخس الآثار، وأسوأ النتائج؛ وما ظنك بأدب يريك الجد والكسل ، والعمل وترك العمل ، أمرين متساويين لا فضل لأحدهما على الآخر ؛ ماظنك بتلك النتيجة الخاسرة حين تلقن أبناءنا هذا الأدب الذى يبعث فى نفوسهم الزهد فى الكفاح والجد ، لأنهم يعلمون أنهم مهما عملوا وجدوا لن ينالوا إلا ما كانوا ينالونه من غير جد ولا عمل ؛ ألا ترى معى أن هذا نوع من الأدب الميت، لأن مثله الأعلى الكسل والخمول والركون إلى الحظ والمصادفة ، وهما أمران يتنافيان الحياة من كل نواحيهما ، ويقفان بها بعيدا عن غايتها المنشودة ؛ فنحن اليوم نريد أدبا لايؤمن بغير الأسباب والعلل، ولايدع للظروف والمناسبات فرصة التغلب على الهمة والعزيمة ؛ ومن الغريب أنك تجد هذا الأدب الميت لايزال متغلبا على النفسية الشرقية ، حتى إذا حدثت أحدهم ملأك العجب والدهشة حين تراه لايصدق بقيمة العمل فى الحياة، وأنه وحده هو الذى يرفع ويخفض ، ولو أتيت له بما شئت من أدلة وبراهين ، فانه سيظل غير مطمئن لأدلتك وبراهينك ، وذلك بلا ريب أثر سيء للأدب الميت الخامل الذى يأبى العمل والنهوض ، وأظننا بعد أن برهن التاريخ على أن الدنيا لاترفع إلا العامل الجد ، وأن هؤلاء الذين ملئوا سمع العالم وبصره، لم ينالوا مانالوه إلا بجدهم وجهادهم؛ ولم يحظوا بذلك الجد الرفيع الشامخ ، إلا بما بذلوه فى سبيله من عمل وتضحية ؛ أظننا بعد هذا كله لانريد إلا أن نلوح بأدبنا الجبرى الكسل، إلى خزانة التاريخ نحفظه بها ولاندع له فرصة الظهور ، ليبث سمومه فى النشء والشباب ، ولنقبل على أدب العمل الذى يصور الحياة ميدان كفاح وجهاد ، لايفوز فيه إلا من تدرع بأوفى قسط من الهمة والعزيمة ، وآمن الايمان كله بالقدرة على تخطى الصعاب والعقبات مهما كانت قوية شديدة .

ولون آخر من ألوان الأدب الميت، نرونه ممثلا فى ذلك الشعر والنثر الملىء بتزهيدنا فى الحياة الدنيا وما فيها من خير وسعادة ؛ حتى ليوهمنا أنا خلقنا لنعيش متقشفين زاهدين، طمعا فى ثواب الدار الآخرة وما أعد لنا فيها من النعيم ، ولقد وجد هذا الأدب نتيجة لفلسفة سادت الشرق فى عصور كثيرة ، فلسفة ضعيفة خائرة القوى ، غير مليئة بالجد والنشاط ، فانالانشك فى أن الزهد لايطمئن إليه إلا رجل ألقى سلاحه ، ولم يشأ أن يكافح ويخوض لجة الجهاد فاقتنع من الكثير بالقليل،لأن همته ضعيفة وعزيمته واهنة ،ثم مضى مبررا جنايته على المجتمع بتركه العمل على ما يرفع من شأنه ، وينهضه إلى أوج العلاء ، فيرغم نفسه على الايمان بأن الزهد فى الحياة خير من الجد والطموح ، اللذين يصلان امره على التعب والنصب ، وهمته الكليلة لاطاقة لها بحملهما ، وأظن الأدب لن يخسر شيئاً ، بل سيربح الربح كله يوم نستغنى عن هذا القدر من أدب الزهد فى الحياة والرغبة عن جمالها ، فلندع زهد المعرى وزهد أبى العتاهية ومن إليهما،

ولنقبل على أدب الجمال والطبيعة الذى يملأ قلوبنا حبا للكون وشغفا بجماله ورغبة فى الحياة ، وفى نيل أوفى حظ منها ، فما دمنا فى هذه الدنيا فلنأخذ بحظنا منها ، ولنوقن بأنا ماخلقنا فى هذه الحياة لنعمل للحياة الثانية فحسب ، تلك العقيدة التى جعلت المسلمين يعيشون فى الدنيا وهم ليسوا من أهلها ، ويحسبون العمل للحياة الحاضرة لا يتفق والعمل للحياة المستقبلة، كما كان يفهم فلاسفتنا السابقون ، ولكننا اليوم نؤمن بأنا قد خلقنا لنسمو بالانسانية إلى المثل العليا ومراقى الكمال .

لا تمكننا إغفال أثر هذا الأدب الذى هو بلا ريب من العوامل الكبرى فى تأخر الشرق واستنامته بالزهد والرضا بالقليل ، فلم ينشأ أن يفكر ويجهد نفسه لينال حظاً أرفع، وعيشاً أهنأ، بل رضى بالقليل يناله، ولا ينصرف فى سبيل نيله قوة أو مجهوداً، فاستغل الغرب ذلك ورأى أن تلك البلاهة الشرقية، التى يسمونها الزهد من أكبر الوسائل لاستغلال جهوده وامتصاص دمه ، ويكفى أن تتصفحوا كتب الأدب لترواقيها الكثير من قول البستى :

زيادة المرء فى دنياه نقصان ... وربحه غير محض الخير خسران
وكل وجدان حظ لاثبات له ... فان معناه فى التحقيق فقدان
ياعامرا لخراب الدهر مجتهداً ... بالله هل لخراب الدهر عمران؟
وياحريصاً على الأموال يجمعها ... أنسيت أن سرور المال أحزان
زع الفؤاد عن الدنيا وزخرفها ... فصفوها كدر والوصل هجران

قدر لنفسك هذا الأثر الذى يبعثه مثل هذا (الأدب) فى نفس الشباب وما يغرسه فى قلبه من زهد وقناعة ، ولست أدرى كيف كانت عقلية هؤلاء القوم الذين يرغبون عن نعيم الحياة الدنيا التى خلقنا فيها لنتال حظنا منها كاملا غير منقوص ؛ فلنستغن عن هذا الأدب ولا نبالى فى قيمة الأدباء الذين يجعلون كل همهم تزهيدنا فى الحياة وما فيها من سعادة ، وثقوا بأنا لن نخسر شيئاً إذا حذفنا من آدابنا هذا اللون الميت ، وأنتجنا أدبا حيا يقبل بكل قوته على النعيم واللذة ورفهنية العيش وحلاوته .

وهناك ألوان أخرى لاتقل فى أثرها السيء عن الألوان السابقة إن لم تزد عنها تأثيراً وفعلا، وهى كثيرة متنوعة كان لها أقوى يد فى هبوطنا وتأخرنا ، مثل أدب التشاؤم وأدب الضعف وأدب الاستسلام وأدب القناعة ، وما إلى هذه الأنواع الميتة التى ورثها الشرق جيلا عن جيل، ونظر إليها بعين الاجلال والتقديس ، فتشبعت نفسه بها ، وأصبح يجد الخروج عليها خروجا على تقاليده وعاداته وأخلاقه؛ وزاد ذلك تمكنا من نفسه ورسوخا فى قلبه أن تلك الأخلاق الضعيفة، تبعث فى نفسه الرضا بحاله ، وتدعوه إلى الكسل الجسمانى والاستكانة إلى الراحة ،

وأعلن ان النفس التي لاتجد حافزاً يدعوها إلى الأمل وإلى العمل تنعم مهاد الدعة ، وتجدفيه غايتها وآمالها ، ولا تسعى إلا حيث لايكلفها السعي مؤنة ولا جدا ، وإني لازلت أؤكد وأوقن بأن جميع ألوان الأدب الضعيف، لها مورد واحد ، ذلك ذو سوء فهم المرقبين لمعنى القضاء والقدر ، حتى لحسبوا أن عملهم وجهادهم سيضيع هباء إن لم يكن قد كتب لهم في عالم الغيب نيل مايريدون ، فالهم يجاهدون ومالهم يعملون ، وماقسم لهم في عالم الأزل سوف يجيئهم وهم مرتاحو الضمير هادئو الفؤاد ؟ ويندر أن تجد شاعراً أو كاتبا ينبع أدبه الضعيف إلا من هذا المورد الذي أساءوا فهمه ، ولم يشاءوا أن يفرقوا بين قضاء وقدر ، وبين جد وعمل ، وتفان في الجهاد ، ولو رجعوا الى حقيقة الأمر للاموا أنفسهم وما ظلموا القدر حين يخفقون في نيل بغية ، وبلوغ أمل ؛ فالقضاء والقدر هما علم الله بكل مايجرى في الكون من خير وشر ، فهو من صفات الكشف لا تأثير له في فعل المرء ، ولا دخل له فيما يقوم به في تلك الحياة من جد أو غير جد ؛ وإذن فالنجاح والاخفاق وما يرفع المرء إلى السعادة أو يهوى به إلى الحضيض ، ليس إلا بما يقدمه من عمل وتفاؤل ، أوكسل وتشاؤم ، فلنعد باللائمة على أنفسنا إن لم ننل ما رجونا وأمانينا ، ولنثق بأن في استطاعتنا أن نشق لأنفسنا طريقاً إلى السماء ، إذا اعتقدنا أن أنفسنا وحدها هي الكفيلة ببلوغنا مانريد ، فاستمددنا منها الهمة وعظائم الأعمال .

إن كل نهضة من النهضات — في قديم التاريخ وحديثه — لاتبنى دعائمها وتثبت أسسها إلا إذا حملها قادة الأدب وحماته ، فهم وحدهم الذين يرشدون الأمة إلى سبل الرفعة والمجد ، ويرفعونها من حضيض الضعة إلى ذرا الرقي والرفعة ؛ ولهذا فانكم ترون الشرق ضعيفاخاضعاً لانه لم ينجب من رجال الأدب هؤلاء العباقرة ، الذين يرفعون أمامه مصباح الأدب قوياوهاجا ، وأنتم ترون كذلك أن نهضتنا التي تغمر جونا اليوم مدينة كذلك إلى حد كبير للأدباء الذين أنجبتهم مصر في تلك الفترة من الزمن ؛ وإنا سوف نسير إلى الأمام بخطى واسعة إلى أمانينا وآمالنا طالما أحسن أدباؤنا القيادة وهداية الأمة .

لهذا كله ندعو اليوم إلى أن ننفض أيدينا من كل أدب لايتفق وهمتنا المشبوبة ، وعزمتنا القوية وأمانينا الباسمة ، وهو تلك الألوان التي سميناها الأدب الميت الذي لايعيش إلا وسط الموتى وبين القبور ، ولن ينقصنا شيء ، ولن ينقص الأدب شيء إذا استغنينا عنه كله ، وبدأنا ننشيء لأنفسنا بناء جديدا من أدب جديد ، لايقع تحت تأثير هذا الأدب القديم ، فلا نحدث الأمة إلا عن عظمة تاريخها ، ومجد آبائها ، ومستقبلها الباسم ، وآمالها في الحرية والاستقلال ، ومالى تلك الأحاديث الشهية العذبة ، التي تملأ قلوب النشء والشباب أملا وتفاؤلا بالمستقبل ، وعزما

(البقية على الصفحة رقم ٢٠٠)